للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي [1]

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣٠ —

« أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ، ثم إنه يخيل إلي دائماً أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ... »

الرافعي

مقالاته للرسالة

سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التي أملاها عليّ الرافعي في الفترة التي صحبته فيها منذ بدأ العمل في الرسالة حتى صيف سنة ١٩٣٥ ؛ وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها ، وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالةً نفسية خاصة يظهر أثرها فيما يكتبه ، وإني لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه في نفسي ولا يتأدّى مُؤدّاه إلى قارئه على وجهه إلا أن أثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعي إلى كل مقال مما أملاه عليّ ؛ وإني بهذا الفصل لأحاول جديداً في فن الترجمة ؛ فما أعرف كاتباً من كتاب التراجم في العربية حفل بهذا الباب في تاريخ الأدباء ، على أن له أثراً أي أثر في دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه ؛ فمن ذلك كانت عنايتي بهذا الباب ، وإني لأرجو أن تسعفني الذاكرة على تمامه حتى أبلغ منه إلى ما أريد ...

***

لم يكن بين الرافعي والزيات صلةٌ ما قبل صدور الرسالة ، إلا صلة الأديب بالأديب ، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا في كتبهما ورسائلهما . ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة ؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعي ، فتعارفا وأتلفا وإن لم يلتقيا وجهاً لوجه . . . ومضت أشهُر . . .

وتصفّحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة ١٩٣٣ ؛ فإذا فيها كلمة عن « أوراق الورد[1] » للزيات ، يجيب فيها فتاة سألته أن يرشدها إلى شيء مما كتب أدباء العربية في رسائل الحب . ومضت فترة وكتبت الفتاة « عفيفة السيد . . . » رأيها في أوراق الورد فعابته ونزلت به منزلة . وكان الرافعي في هذه الأثناء بعيداً عن طنطا يصطاف في « سيدي بشر » ، وكان عليّ في هذه الفترة ، والرافعي بعيد عن ميدان الأدب في مصطافه ، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف ؛ فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردّت به الفتاة ، قصصته من صحيفته وبعثت به إليه في سيدي بشر ومعه رسالة مني . . . وقرأ الرافعي ما بعثت إليه ، فانتضى قلمه وكتب كلمة للرسالة يردّ بها رأي الفتاة . وكانت كلمة قاسية لم يجدها الزيات إلا فصلاً من « على السفود[2] » لا تقوى على لدغاته الفتاة الناعمة . . . فطوى الزيات كلمة الرافعي ونشر كلمة في الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء ، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة شيئاً من منثور أوراق الورد . . . ولم يجب الرافعي هذه الدعوة إلا بعد بضعة أشهر

كانت كلمة الرافعي إلى « عفيفة السيد » عن أوراق الورد هي أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته ، ولم تنشر . ثم سعى إليه يوماً شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف اسمه « يوسف ... » وكان

(١) أوراق الورد ، هو الكتاب الثالث من كتب الرافعي في فلسفة الجمال والحب ، وهو الفصل الأخير من قصة (حب الرافعي) ورأيي فيه منشور في الأعداد السابقة من الرسالة

(٢) على السفود : هو كتاب الرافعي والعقاد ، ولي فيه رأي منشور بالعدد ٢٤١ من الرسالة ، على أني أعترف على نفسي بأني كنت قليل التجربة يوم حكمت حكمي على هذا الكتاب ؛ فإن من الناس طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب « على السفود »

(١) العدد ٢٥٨

الرافعي يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ وإذ كان الرافعي لا يملك أن يحسن إليه بالمال — والمال في يده قليل — فانه كان يحسن إليه بما يملي عليه من رسائل الأدب ، ليأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة ، وهو ضرب من الاحسان على قدر طاقة الرافعي !

... جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب : « لماذا لا تعالج القصة ؟ »

وأملى عليه الرافعي جوابه ، فذهب فنشره في الرسالة بعنوان « فلسفة القصة » . وكانت أول ما نشر للرافعي في الرسالة[1]

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل ، فطلبت الرسالة إلى الرافعي أن يكتب فصلاً للعدد الممتاز ؛ فأنشأ مقالة « وحي الهجرة في نفسي »[2] ؛ وهو فصل كان يعتز به الرافعي اعتزازاً كبيراً ويتمنى لو أتيحت له الفرصة ليتم الحديث عن « فلسفة » حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) على هذا النهج، ليكون كتاباً بتمامه عن السيرة النبوية على نسق غير النسق الذي جرى عليه « القصّاص » ممن كتبوا عن حياة محمد ...

ومضى شهر ، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا « ديوان الأعشاب » وكان مرجوًّا أن يكتب عنه ؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان — وطابعه غير صاحبه — أن يكون إعانة مادية لناظمه توسّع عليه ما ضاق من دنياه... !

وقرأ الرافعي ديوان الأعشاب ثم ... ثم هزّته أريحيته إلى أن يكتب عنه ، تحقيقاً لرجاء الراجين فيه ، وبرًّا بصاحبه . وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالاً يعنونه بعنوانه ويذيله باسمه ؛ فدعاني إليه واصطنع حديثاً بيني وبينه فأملاه عليّ لينشر في الرسالة مذيّلاً باسمي ؛ وما كان بيني وبينه حديث في شيء، ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فسماها حديثاً ... وأرضى كبرياءه وعاطفته الرحيمة في وقت معاً .

(١) العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ من الرسالة
(٢) العدد ٦٢ سنة ١٩٣٦ من الرسالة

كان الرافعي في حرج وهو يملي عليّ هذا الحديث ؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه في الرأي وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق ، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله ، فجعل أكثر مقاله عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه ؛ ثم خص الديوان بكلمات في خاتمه الحديث كانت هي خلاصة الرأي فيه ؛ وبذلك برئ من الاسراف في المدح ومن الايلام في النقد ، وخرج من الأمرين معاً إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغايته. فأجاد وأفاد في باب من القول له منزلة ومقدار .

ومن كلامه في هذا الحديث :

« متى ذهبت لتحتج لزيغ الشعر من قِبَل الفلسفة ، وتدفع عن ضعفه بحجة العلم ، وتعتل لتصحيح فساده بالفن ؛ فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر ... لم يستو في تركيبه ، ولم يأت على طبعه ، ولم يخرج في صورته ؛ وما يكون الدليل على الشعر من رأى ناظمه وافتتانه به ودفاعه عنه ؛ ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به ... »[1]

ونشر هذا الحديث في الرسالة ، ومضى شهر آخر ... ثم جاء البريد ذات صباح إلى الرافعي بكتاب من الزيات ، يعرض عليه أن يكون معه في تحرير الرسالة بمقالة ينشرها كل أسبوع أو كل أسبوعين ، وقدر له أجرا ... وقبل الرافعي ، وما كان له بدٌّ من أن يقبل ، لبعض ما قدمت من الحديث عن شئونه الخاصة في هذه الفترة من حياته . وكانت مقالته الأولى بعد هذه الدعوة ، هي مقالة « لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فَنَّيَّته »[2]

وتوالت مقالات الرافعي بعد ذلك في الرسالة ، فنشر في الأسبوع التالي مقالة « الاشراق الإلهي وفلسفة الاسلام » وأحسبه اختار هذا الموضوع — على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق — احتفاء بالمولد النبوي ؛ إذ كان هذا موسمه ثم نشر « موت أم » وهي صورة حية نابضة لصبيّة فقدوا

(١) العدد ٤٦ سنة ١٩٣٤ الرسالة
(٢) العدد ٥٠ سنة ١٩٣٤ الرسالة

أمهم وما يزال أكبرهم فى الثامنة ؛ وهى صورة حقيقية صرّت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه ؛ أما هذه الأم فهى زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف ، وأما هؤلاء الصِّبية فبنوها ؛ اعتصرها الموت فى ريعانها فمضت وخلّفت وراءها أربعة ، فبكاها الرافعى بكاء الوالد ؛ وما أعلم أنه مشى فى جنازة قبل جنازتها ، ودفنت فى مقبرة آل الرافعى بطنطا . ولما عاد الرافعى من الجنازة ليعزى الأستاذ مخلوفاً فى داره ، دعا بولده ليمسح على رأسه ويسرّى عنه ، فكان بين عينيه وعينىّ الطفل حديث طويل ؛ فما غادر مجلسه إلا ورأسه بفيض بشتى المعانى وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم ، وعيناه تترقرق فيهما الدموع !

وروّح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر ... ومضى يوم ثم أرسل يدعونى إليه فأملى علىّ « موت أم ! »

وكان فى الأسبوع التالى موعد امتحان الشهادة الابتدائية فكانت مقالتــه « حديث قطّين » وإنها لتتحدث بنفسها عن مناسبتها . وإن فيها لشيئاً من خلق الرافعى لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه ، ذلك هو طبيعة (الرضا) بما هو كائن ؛ فقد كان ذلك من أزم صفاته له ؛ فكان دائماً باسماً منبسط الوجه، يقنع نفسه فى كل يوم بأنه فى أسعد أيامه ؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله قدّ يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له . ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعى لم يكن يرى فى تلك العلة التى ذهبت بسمعه وما يزال غلاماً ، إلا نعمةً هيأتــه لهذا النبوغ العقلى الذى أملى به فى تاريخ الأدب فصلاً لم يُكتب مثلُه فى العربية منذ قرون ! ولا شىء غير الإيمان بحكمة القدَر وقانونِ التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذه النوازل بقدر ما تعطيه ... وذلك بعض إيمان الرافعى !

هذا الخلُق هو المحور الذى كان يدور حوله الحديث الذى اصطنعه الرافعى على لسان القِطّين ؛ وهو الذى حمله من بعد على إنشاء مقالتى « سمو الفقر » فى العددين التاليين من الرسالة ؛ والشىء يُذكر بالشىء ؛ فلولا ما جاء فى امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام ما أنشأ الرافعى حديث قطين ، ولولا ما ألهمه حديث القطين من المعانى فى فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتى سموّ الفقر ؛ فى هذه المقالات الثلاث موضوعٌ واحد اختلف عنوانه واتحدت غايته وكانت مناسبتُــه ما قدّمْت ...

ثم أنشأ مقالة « أحلام فى الشارع » وقصتها أننى كنت أسامر الرافعى أحياناً فى قهوة (لنوس) بطنطا أو فى السينما ؛ فاذا ما انتهت السهرة صحبته إلى قريب من داره ثم أروح وحدى، وكنا نمر فى طريقنا كل ليلة بدار (بنك مصر) ، فى ليلة ما كنا عائدين من السينما وقد انتصف الليل ؛ فلما صرنا قبالة (البنك) وقف الرافعى هنيهة ليشهد منظراً استرعى انتباهه : طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك ، وقد توسّدت الفتاة ذراعاً وألقت ذراعاً على أخيها ... ووقف الرافعى ووقفْت ... ورأى الشرطىّ ما رأينا فأسرع إلى الطفلين ...

وفى الغد أملى علىّ الرافعى مقالة « أحلام فى الشارع ! »

... وكانت المقالة التالية « فى اللهب ولا تحترق ! »

وهى المثلة الراقصة المغنية فـ... وكانت تعمل فى فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر ، حلت مع فرقتها فى طنطا فى صيف سنه ١٩٣٤ ، ولسبب ما لم يذهب الرافعى إلى مصيفه فى سيدى بشر هذا العام ، واستغنى عن البحر والمصيف بما قد يكون فى طنطا من أسباب الملذات والرياضة ؛ وإن فيها لَغَنَاء وعوضًا ...

وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافعى نسمر معه كل مساء (س ، ا ، ع) وجلسنا حوله ذات ليلة ، وكان متعبا مكدوداً يشعر بحاجته إلى لون من ألوان الرياضة يرد إليه نشاطه وانبساطه ؛ قال : « أين تقترحون أن نقضى الليلة ؟ »

قال ا : « إن فى متنزه البلدية فرقة تمثيلية ، هبطت المدينة منذ أيام ، وإن فيها مغنية راقصة ، أحسبها خليقةً أن توحى إليك بفصل جديد من أوراق الورد ! »

فطّ الرافعى شفتيه ولم يعجبه الاقتراح . وأحسب أن الصديقين ا و ع كانا على رغبة مشتركة فى هذه السهرة ، فما أحسّا رفض الرافعى حتى قال ع : « ... ولكنها راقصة

ليست كالراقصات : إنها صوّامةٌ قوّامة ، تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقلّه ، وتصلي الخمس في مواعيد الخمس ؛ وما أحسب رقصها وغناءها إلا تسبيحاً وعبادة . . . إنها . . . ! »

مغنية وراقصة ، ولكنها صوامة قوامة ... يا عجبا ! وهل في الراقصات كهذه التي يصفها الصديق العابث ع ؟ ... ولكن الرافعي صدّق، وعرف الصديق طريق الاقناع إلى قلب الرافعي . واتفقنا على الرأي . . .

« هذه هي الراقصة التي أعني ... » هكذا قال الصديق (ع) فاشرأب الرافعي ينظر من وراء الصفوف . لقد رآها ، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما هي في أعين هؤلاء الناس . . . كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام ...

هذا الصدر الناهد ، وهذه الساق الفاء ، وذلك القوام الأهيف ، وهاتان العينان الحالمتان ، وهذا الخد الناضر ، وهذه الشفة الباسمة ، وذلك الشعر اللامع ... هذه كلها سحر وفتنة ، تعترك حولها شهوات الرجال ، وتترامى إليها أماني الشباب ؛ ولكن رجلاً واحداً بين النظارة لم يكن يبصر شيئاً من ذلك : رجلاً لم يكن أحد فيمن أعرف أضعفَ منه بإزاء سحر المرأة ، ولكنه الليلة شخص غير من أعرف ؛ ولكن هذه الراقصة بإزائه غيرها بإزاء الناس ... هي في عين الجميع (أنثى) فاتنة ، ولكنها بعينيه هو قديسةٌ تستحق التبجيل والاحترام ...

كانت على عين الجميع راقصة تغني، وكانت بعينيه عابدة تسبّح وتصلي ... كان الناس ينظرون إلى الراقصة وهي تفتنُ في إغراء الرجال بالنغمة والحركة والرَّنْوَة الفاتنة ، وكان الرافعي ينظر في أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله تريه ما لا يراه الناس !

وانقض السامرون إلا قليلا تحلّقوا حول الموائد يقرعون كأساً بكأس ، ونهض الرافعي فيمن نهض ...

ومضى يومان ، ثم دعاني ليملي عليّ مقالة « في القلب ولا تحترق ! »

ولما فرغ الرافعي من شأن هذه المقالة ، دعا إليه بصديقه (ع) يستزيده من خبر هذه الياقوتة الكريمة ، ويسأله الوسيلة إلى لقائها إن كان بينهما سبب ، لعل اجتماعاً بينها وبين الرافعي يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة ؛ فابتسم الصديق (ع) وقد دبر في نفسه حيلة تجمع بينها وبينه ؛ وهل يعجزه هو — وهو مَن هو — أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليمضي في مَزْحَته إلى النهاية ؟

وذهب (ع) يسأل عن الراقصة ويستقصي خبرها فعرف ...

لقد فرّت (الياقوتة) مع موسيقيّ الفرقة ، ومضي زوجها في أثرهما ، فانحلت الفرقة وغادرت المدينة

وجاء النبأ إلى الرافعي ؛ فما عرف إلا من بعد أنها كانت مزحة من الصديق ع فأسرّها في نفسه . . .

وعاد الرافعي إلى المقال يقرؤه منشوراً في الرسالة وهو يضحك ويقول : « أهذا ممكن ؟ أهذا مما يكون ؟ أتكون في القلب ولا تحترق ؟ »

فرد الصديق (ع) قائلاً : « لقد احترقت ! »

وكانت كذبة ، ولكنها أنشأت مقالة لم يُنشأ مثلها فيما قرأت من روائع الأدب العربي !

(شبرا) محمد سعيد العريان

سندباد عصري

في سفينة مصرية
رددت أخبارها صحف العالمين

الإنسانية في شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصري

بقلم

حسين فوزي

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً